المناهج والمنهجية - مدخل ومقاربة لمبادئ ومفاهيم مناهج البحث

1-الغاية من دراسة المنهج

إن الدراسات والبحوث في مجال مناهج البحث, قليلة ومحدودة إلى حدٍ ما، ولا تتناسب مع ما للمناهج البحثية ودراستها والبحث فيها, من أهمية استثنائية، فالمنهج أداة العلم وعدته، ولا سبيل لإحراز تقدم في مجال البحث العلمي دون منهج صائب، إذ عند غياب المنهج, يفقد الباحث خط سيره ومساره، وقد يضلَ ولا يحقق ثمرة بحثه و الغاية منه.

وعموماً فإن الإنسان وهو ينشد الحقيقة ويفتش عنها في ميادين العلم وأنحاء الوجود، ويتطلع إلى التقدم في حاجة ماسة إلى منهج ومذهب للتفكير، الذي دونه لا يسلك أي بحث أو دراسة مهما كانت عناوينها، طريقها إلى غاياتها ونهاياتها، فلا سبيل للإنسان لإدراك مراده وإحراز تقدم حقيقي في مجال العلم بغير المنهج.

2-الجذور التاريخية لنشأة المنهج

كانت الفلسفة قديماً, تعنى بدراسة المبادئ الأولى للأشياء وحقائقها, وعلاقة بعضها ببعض, فكانت بذلك تشمل العلوم جميعاً، ثم انفصلت عنها العلوم الرياضية، فسائر العلوم الأخرى، حتى اقتصرت الفلسفة في دراساتها على ثلاث موضوعات وهي: المعرفة، الوجود والقيم الثلاث "الحق والخير والجمال".

ومن ثم توزعت الموضوعات المتعلقة بالقيم الثلاث بدورها إلى ثلاثة علوم، العلم الذي اختص بدراسة الحق هو علم "المنطق"، والذي اختص بدراسة الخير هو علم "الأخلاق"، والعلم الذي اختص بدراسة الجمال هو علم "الجمال أو الفن"، في حين اختصت الفلسفة بموضوعي المعرفة والوجود.

فكان علم المنطق يمثل منهج التفكير, حيث يعنى بدراسة قواعد التعريف وقواعد الاستدلال وقواعد تنظيم العلوم، ثم فيما بعد استقلت هذه المقاصد باسم "مناهج البحث", فمناهج البحث التي ولدت في أحضان الفلسفة, كانت فرعاً من المنطق.

كان الفيلسوف أرسطو طاليس, الذي يعد الرائد لعلم المنطق في موسوعته "الأوركانون", التي تضمنت بحوثه المنطقية "الوسائل المعرفية"، قد استخلص فيها قواعد المنطق وقوانينه، ورأى في المنطق الوسيلة لفهم العلوم، وليس علماً قائماً بذاته، وقد سلك في تفكيره مسلكاً دقيقاً، واتخذ لنفسه منهجاً علمياً مبرئاً، يبدأ بتحديد الموضوع المراد بحثه، مستعرضاً لآراء السابقين، ومتناولاً إياها بالنقد والتحليل، ثم يستخلص رأيه في ذلك.

ورأى أرسطو, أن العلم يدرس ماهية الأشياء، لذا كانت دراسته تنصب على الصفات العامة الجوهرية التي تتسم بالثبات، فالعلم في نظره يدرس الماهية، أو المعاني الكلية,

فحاول أن يكشف العلاقة بين القياس المنطقي والبرهان الرياضي، وفطن إلى ذلك، فجوهر القياس عنده مأخوذ من التفكير الرياضي، بل إن القياس في مضمونه, ليس إلاّ إحدى مراحل البرهان الرياضي, فالمنطق حتى مدركات عصرنا هذا, هو إحدى مراحل البرهان الرياضي.

فظهرت مفردة "المنهج" وقد أوليت المسألة، أي المنهج, أهمية علمية بربطها بعلم المنطق، فالعلاقة بينهما وثيقة، وذلك لأن المنطق هو الذي يضع نظريات المناهج وأصولها، فالمناهج تعد مبحثاً من مباحثه، أو فرعاً من فروعه، وإن تفرعت في تصنيفاتها.

3- مدخل لماهية المنهج ومباني علم المنطق

المنطق هو قانون التفكير الصحيح, فإذا أراد الإنسان أن يفكِّر تفكيراً صحيحاً, لابدَّ له أن يراعي هذا القانون، وإلاّ سوف يزلّ وينحرف في تفكيره فيحسب ما ليس بنتيجةٍ نتيجةً, أو ما ليس بحُجَّةٍ حجَّةً.

فمن القراءة التحليلية لمرتكزات ومباني علم المنطق, تتبين إسقاطاتها على المنهج, وضرورة الشروع فيها واعتمادها في مادته وحركته, بغض النظر عن شكل المنهج وتصنيفه, فقد قسم أرسطو المنطق إلى ثلاثة أقسام وهي التصورات أو الحدود, القضايا أو الأحكام والاستدلالات, وأخذه منه كثير من المناطقة والفلاسفة العرب المسلمين مثل ابن سينا، ومنهم من قسمها إلى قسمين، تصور وتصديق، وهو لا يختلف كثيراً عن تقسيم أرسطو، لأنه قسم التصديق إلى قضايا و استدلالات.

ومن ذلك يتبين إسقاط هذه العناوين في جسم البحث العلمي ومناهجه, بدءاً من "الحدود"، وأهميتها، فهي النقطة التي يبدأ بها الدارسون للدراسة المنهجية المنطقية, ثم "التصور" الذي يعرّف بأنه حضور صورة الشيء في الذهن, دون حكم عليه بسلب ولا إيجاب, وهو ما يستوجبه البحث العلمي, لجهة انسداد البحث وانتفاء الحاجة له في حالة الحكم عليه مسبقاً, أو إن البحث سيؤول الى نتائج غير ذي قيمة علمية, وغير رصينة, على خلاف الأحكام أو ما يعبر عنها في المنهج "بالقوانين", التي يستدل إليها من خلال المنهج العلمي, والتي يخلص لها البحث عادة, وينتهي لها سواء استقراءاً علمياً, أو تجربة أو قياساً منطقياً.

والتصوّر يمكن أن يكون "بديهياً", لا يكاد يحتاج إلى تأمل وإعمال فكر ونظر، كتصوّر الوجود, أو "نظرياً", يحتاج إلى تأمل وإعمال فكر ونظر, كتصوّر العقل أو النفس, ويجمع المناطقة أن التصور التام لشيء ما, لا يكون إلا بتعريفه تعريفاً دقيقاً, وهذا يكشف أهمية المنهج وأثره في الحياة العامة وفي ميادين العلم.

4-الجذر اللغوي والبنيوي الاصطلاحي لمفردة "المنهج"

تشتق كلمة "منهج" في العربية من الفعل "نهج" أي سلك طريقاً معيناً، وبالتالي فإن كلمة

"المنهج" تعني الطريق والسبيل، ولذلك كثيراً ما يقال أن طرق البحث مرادفة لمناهج البحث, وهي ترجمة لكلمة منهج باللغة الإنجليزية Method, ونظائرها في اللغات الأوربية, وترجع هذه المفردة إلى الأصل اليوناني القديم، الذي يعني البحث أو المعرفة أو النظر، والمعنى الاشتقاقي لها يدل على الطريقة أو المنهج الذي يؤدي إلى الغرض المطلوب، وهذه الكلمة شائعة في معاجم اللغة العربية، وتعني الطريق الواضح.
وتشير المعاجم اللغوية اليونانية إلى أن أصل المصطلح "المنهج" هو "ميتا أوذوس" المركب من كلمتي "ميتا" META, التي تعني ما بعد أو ما يؤدي إلى، وكلمة "أوذوس" ODOS التي تعني الطريق أو المسار، والمعنى المتشكّل لغوياً هو: ما بعد الطريق أو المسار المؤدي إلى، ووفقاً لفقه اليونانية، أن تتغير التاء الى ثاء عند التقائها بحرفي العلة "الصوتيين" الألف والواو في الكلمة مع حذف الألف, فأصبحت المفردة المركبة الجديدة "ميثوذوس" METHODOS، فانتقل اللفظ إلى اللاتينية بشكله المذكور وفق التقارض اللغوي method، الذي أصبح متداولاً في سائر اللغات الأوربية وغيرها بنفس الصيغة واللفظ، وبات متداولاً بالمعنى المعاصر وقد استوعبت العربية للمعنى كدأبها بدقة، بالمفردة المتشكلة لغوياً "المنهج".

- وفي ابتداء عصر النهضة الأوروبية أخذت كلمة "المنهج" مدلولاً **اصطلاحياً**، يعني أنها طائفة من القواعد العامة المصاغة، من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم بقدر الإمكان.

وقد بلغ عدد تعريفات البحث العلمي إلى أكثر من مائة تعريف من أبرزها تعريف [هيلوي . ت.] الذي يرى أن البحث وسيلة للدراسة يمكن بواسطتها الوصول إلى حل لمشكلة محددة، وذلك عن طريق التقصي الشامل والدقيق لجميع الشواهد والأدلة التي يمكن التحقق منها والتي تتصل بهذه المشكلة المحددة .

ولعل أكثر التعريفات شمولا وبساطة هو الذي يرى أن المنهج : هو الطريقة التي تُعين الباحث على أن يلتزم بإتباع مجموعة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل سيراً مقصوداً في البحث العلمي، ويسترشد بها الباحث في سبيل الوصول إلى الحلول الملائمة لمشكلة البحث .

5-مقاربة لتعريف المنهج ومفهومه

يرتبط تاريخ أصول البحث بتاريخ التفكير، ذلك أن البحث يعني التفكير واستخدام الوسائل العلمية من أفكار وأدوات، وفق قواعد محددة، لمعرفة مجهولٍ ما، والمنهج يعني الطريقة، وكل تفكير بدائياً كان أو غير بدائي، أصيلاً أو غير أصيل، فلابد من اعتماده على طريقة تساعده في الوصول إلى النتيجة، ولذا كان المنهج توأم التفكير في الولادة،

فهو قديم قدم التفكير، أما أصول البحث فتعني قواعد البحث، وعلم أصول البحث يعني دراسة قواعد البحث.

إن جميع العلوم هي نتاج التفكير الإنساني، ومن الواضح أيضا أن الإنسان حين يفكر، يهتدي إلى نتائج صحيحة ومقبولة، وقد ينتهي إلى نتائج خاطئة، وغير مقبولة، ولكي يكون التفكير سليما وتكون نتائجه صحيحة، أصبح الإنسان بحاجة إلى قواعد عامة، تهيئ له مجال التفكير الصحيح، متى سار على ضوئها، وإن العلم الذي يتكفل بذلك هو المنطق، كي يكون التفكير العلمي، صحيحا وذا نتائج مقبولة.

إذن تُعتمد قواعد وأصول المنطق، وأساليبه في التفكير الصحيح، من أجل إنجاز البحوث العلمية، وبلا شك فإن المنطق هو الأساس والمنطلق لجميع المعارف البشرية، ومن ثم إن نتاج البحوث العلمية تكون بمثابة قاعدة معرفية وعلمية للبحوث التي تعقبها، وإن القيمة الأساس لعلم المنطق، هي بتوفره على تكوين قدرة التفكير السليم، في البحث والنقد وتقييم الآراء والأفكار وتقدير الأدلة والبراهين، في مختلف مجالات الفكر الإنساني.

وعليه فان المنهج هو الطريقة التي يعتمدها الباحث للوصول إلى هدفه من البحث، وإن وظيفته العلمية هي استكشاف المبادئ والقوانين، التي تنظّم الظواهر الاجتماعية والتربوية والإنسانية بصفة عامة، والتي تؤدي إلى حدوثها، حتى يمكن على ضوئها تفسير هذه الظواهر و ضبط نتائجها و التحكم بها، بمعنى انّه طريقة في التفكير.

وبهذا فإن البحث هو التفكير، والمنهج هو الطريقة، وهو مجموعة القواعد العامة التي يعتمدها الباحث في تنظيم ما لديه من أفكار أو معلومات من أجل أن توصله إلى النتيجة المطلوبة، فالمنهج هو مذهب وطريقة البحث، ويسمّى في الأدبيات الغربية أيضا، المقاربة في البحث Approach، أو السياق في البحث Procedure

كما يقر البعض أن المنهج الأكثر استخداما, هو المنهج الذي يقوم على تقرير خصائص ظاهرة معينة، أو موقف يغلب عليه صفة التحديد، و يعتمد على جمع الحقائق و تحليلها و تفسيرها واستخلاص دلالتها، كما أنه يتجه إلى الوصف الكمي أو الكيفي للظواهر المختلفة، بالصورة الحقيقة في المجتمع، للتعرف على تركيبها و خصائصها .

6-الإتجاهات العامة في مناهج البحث

يحدد علماء المنطق الحديث "المنهج" بأنه فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين يكون الباحث جاهلاً بها، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين، حين يكون الباحث عارفا بها ويجهلها الآخرون، وبهذا يكون هناك اتجاهان للمنهج من حيث اختلاف الهدف، **أحدهما** يكشف عن الحقيقة، ويسمى منهج التحليل أو الاختراع، **والثاني** يبرهن على الحقيقة, ويسمى منهج التصنيف.

ويحدد الباحث نوع المنهج الذي ينتهجه حسب نوع البحث, نظرياً أو تطبيقياً أو بالأسلوب

العلمي التراتبي، وبحسب طبيعة الموضوع، أو عنوان البحث أو الدراسة وأهدافها، التي تم تحديدها مسبقاً وفقاً لمعضلة البحث، ويمكن القول أن اختيار المنهج من قبل الباحث، يخضع إلى ظروف خارجية أكثر منها إرادية.

7-الأسلوب العلمي و مناهج البحث

يشير مصطلح الأسلوب العلمي إلى ذلك الإطار الفكري الذي يعمل بداخله عقل الباحث، في حين أن كلمة "منهج البحث" تعني الخطوات التطبيقية لذلك الإطار الفكري، ولا يعني هذا الاختلاف في ماهية هذين الاصطلاحين أي تعارض بينهما، فمن الناحية اللغوية يتقارب كثيراً معنى كل من أسلوب ومنهج، ولكن يقصد بهذا التمييز، التوضيح والتفسير، ففي أية دراسة علمية، تتخذ العمليات العقلية في ذهن الباحث ترتيباً وتنظيماً متكاملاً، توجه خطواته التطبيقية، ولذلك يفضل أن يستقل كل مصطلح بجانب من الجانبين، بحيث تستعمل كلمة "أسلوب" لتشير إلى الجانب التطبيقي لخطوات البحث.

إن الفرق بين المنهج العلمي وغيره، هو أنه يعالج المشكلة بأسلوب علمي، أي أنه يسير في حلّها بخطوات فكرية معينة يطلق عليها "خطوات التفكير العلمي"، وهذا ما يميز الباحث العلمي عن سواه، فأسلوب التفكير العلمي، هو الذي يميز الباحث العلمي، ويمكنه من تمحيص نتائج بحثه والتحقق من صحتها.

أما بخصوص خطوات الأسلوب العلمي في التفكير، فهي تكاد تكون نفسها خطوات المناهج البحثية، مع وجود بعض التفاصيل التي تختلف باختلاف مناهج البحث، إلا أن الأسلوب الفكري هو الذي ينظم اتجاهات المنهج البحثي.

وبالنتيجة فإن مفهوم البحث، هو الدراسة العلمية لظاهرة ما للوصول إلى الحقائق، ومفهوم النظرية، عبارة عن مجموعة من القضايا المترابطة ترابطاً منطقياً لتفسير ظاهرة ما، والفرض هو حلول تخمينية تعبر عن علاقة بين متغيرين أو أكثر سلباً أو إيجاباً.

وإن علم المنطق يمكن تقسيمه أساساً إلى منطق صوري، ينصرف إلى جميع طرق العقل والتفكير، وإلى منطق تطبيقي، وهو ما يعبر عنه بمناهج البحث، ويمكن التعبير عن المسالك الثلاثة العامة الرئيسة في مناهج البحث كما يلي:

1. **المنهج الاستدلالي أو التحليلي أو الاستنباطي المنطقي "العقلي".** وفيه يربط العقل بين المقدمات والنتائج، وبين الأشياء وعللها على أساس المنطق والتأمل الذهني، فهو يبدأ بالكليات ليصل منها إلى الجزئيات.
2. **المنهج الاستقرائي "التجريبي".** وهو يمثل عكس سابقه، حيث يبدأ بالجزئيات ليصل منها إلى كليات وقوانين عامة، وهو يعتمد على التحقق بالملاحظة المنظمة, الخاضعة للتجريب والتحكم في المتغيرات المختلفة.

3. **المنهج الاسترادادي "التاريخي".** يعتمد هذا المنهج على عملية استرداد ما كان في الماضي ليتحقق من مجرى الأحداث، ولتحليل القوى والمشكلات التي صاغت الحاضر، فهو منهج تاريخي نقلي وتحليلي في دراسة النص والمصادر المكتوبة، وتجريبي في الدراسة الآثارية "الأركيولوجية"، والبحث في الوثائق الموروثة ودراسة الإنسان "الأنثروبولوجيا".

8-تعريف علم المنهج : Méthodologie

علم المناهج هو العلم الذي يدرس المناهج البحثية المستخدمة في كل فرع من فروع العلوم المختلفة. لذلك يعتبر فرعا من فروع الإبستمولوجيا .

و يمكن تعريف علم المنهج على أنه :

- تحليل المبادئ والطرق والقواعد المطبقة في تخصص معين في البحث والتحري عن النظريات .
- أو تطور المنهجية المطبقة في تخصص ما .
- أو الإجرائيات العملية أو مجموعة الإجرائيات ..

ويمكن لعلم المنهج أن يتضمن :

- دراسة مجموعة نظريات، مصطلحات أو أفكار .
- دراسة مقارنة للطرق المختلفة والمقاربات البحثية .
- نقد للطرق المستخدمة والمناهج.

ترجع كلمة Méthodologie في بعدها المعرفي إلى الفيلسوف الألماني كانط، فقد قسم المنطق إلى قسمين :

الأول : مذهب المبادئ وموضوع شروط المعرفة الصحيحة .

الثاني: علم المناهج الذي يحدد الشكل العام لكل علم و الطريقة التي بها يكون .

وإلى جانب علم المناهج العام، توجد علوم مناهج جزئية تختلف باختلاف مواضيعها باختلاف العلوم. ومهمة كل منها تحديد العمليات الواجب إتباعها في دراسة ذلك العلم.

اصطدم علم المناهج العام بعلوم المناهج الجزئية، لأن تحديد الطرق التي تنتهجها العلوم المختلفة لا يمكن إلا بالعودة للسبل التي يسير عليها العلماء فعليا في كل علم. لذلك قامت في أواخر القرن التاسع عشر مشكلة معرفية بين مجال علم منهج البحث العام ومجال علوم مناهج البحث الجزئية .

حسم الفيلسوف كلود برنار المشكلة وذهب إلى أن المناهج لا يمكن أن تُدرس نظريا كقواعد عامة تُفرض على العالم أن يسير وفقا لها. وإنما تتكون المناهج في داخل المعمل وإبان الاتصال المباشر بالوقائع و التجارب العملية .

فالعلم في نظر كلود برنار يرتكز على :

1. العلم لا يحصل إلا في المعمل .
2. العلم يجب ألا يسبق بمذهب فلسفي يسير على خطى تعاليمه .
3. المناهج تختلف باختلاف العلوم، وليس هناك منهج واحد للبحث في العلوم .

رأي كلود برنار صحيح في مضمونه العام فليس للفيلسوف أو صاحب المنطق أن يلزم أي عالم بقواعد عامة. غير أن تفرع العلوم وتشعب مناهجها تستدعي عادة التنسيق بين هذه الفروع لاستخلاص ما هو إنساني مشترك بينها جميعا، ليستفيد كل علم من مناهج العلوم الأخرى، فيطبق ما يراه مثمرا له، مع مراعاة الحقل العلمي الذي ينتمي إليه .

9- الفرق بين المنهج والمنهجية:

إن المنهجية فرع من فروع الإيبستمولوجيا (علم المعرفة) تختص بدراسة المناهج أو الطرق التي تسمح بالوصول إلى معرفة علمية للأشياء و الظواهر أمّا المنهج فهو مجمل الإجراءات و العمليات الذهنية التي يقوم بها الباحث لإظهار حقيقة الأشياء أو الظواهر التي يدرسها و يمكن أيضا أن نعتبر بأنّ المنهج هو موقف أمام الموضوع و نتحدث في هذه الحالة مثلا على المنهج التجريبي و المنهج الطبي ، و إنّ كلمة المنهج تعني أيضا اللّجوء إلى أنماط تحليلية خاصة بفروع علمية مميزة.

هناك من يجعل مفهوم المنهج مرادف لمفهوم المنهجية فهل المنهج هو المنهجية ؟

المنهج هو ذلك الطريق أو الأسلوب الذي يختاره الباحث من بين عدة طرق وأساليب علمية (المناهج) بما يتناسب مع موضوع بحثه ،وذلك لمعالجة إشكاليته وفق خطوات بحث محددة من أجل الوصول إلى حلول لها أو إلى بعض النتائج بشأنـها، ولذلك يمكن القول أن المنهجية أشمل من علم المناهج الذي هو جزء أساسي منها،فهو يظهر أساسا في كيفية معالجة الموضوع على

مستوى المتن و خطة البحث وهما من أجزاء البحث ، أما المنهجية فهي تهتم بكل أجزاء وأقسام البحث العلمي من خلال بيان عناصرها وشروطها و القواعد التي تحكمها، فضلا عن المسائل المتعلقة بالشكل مثل : كيفية الوثقنة في الهامش ، كيفية توثيق قائمة المراجع ، علامات الوقف ...،

إن معنى منهجية البحث العلمي كعملية أو نشاط فكري (الإستقراء و تفسير الواقع) يختلف عن مسألة المناهج المنطقية. إن مضمون المنهجية كأسلوب تنظيم و تصوير شامل لأجزاء البحث العلمي و الإلتزام بتنفيذها مرحلة تلو الأخرى.

إنّ المنهجية بمفهومها الواسع هي فلسفة البحث العلمي والفكر المتبع في الأبحاث العلمية ، و الغاية من تعريف الطالب بالمنهجية كأسلوب عام تهدف إلى تجنبه من الوقوع في الأخطاء " التي يقع فيها عادة " الباحث المبتدىء.